اصلاح فرض تأليفي في الإنشاء
[المرأة في المجتمعات المعاصرة]

الموضوع

انتسبت أختك إلى جمعيّة تعنى بالعمل السياسي والاجتماعي والثقافي فاعترض والدك على ذلك زاعما أنّ المرأة عاجزة عن التوفيق بين مهامها داخل البيت وخارجه فحاولت أختك أن تقنعه بقدرة المرأة على الإسهام في بناء الأسرة والمجتمع.

أنقل الحوار الذي دار بينهما مبيّنا الحجج التي اعتمدتها أختك في إقناع أبيك .

التّحـــــريـــــر

- **المقدمة:**

لئن حقّقت المرأة اليوم من المكاسب ما جعل العقليّة القائلة بقصورها و عجزها تندثر فإنّ الكثير من النّاس ما زالوا يعتقدون أنّها بحكم دورها الكبير في تنشئة الأبناء و إعدادهم للمستقبل قد عجزت عن التّوفيق بين مهامّها في الأسرة و دورها في المجتمع و يعد أبي من بين هذه الفئة إذ أثار اندهاشي يوما عندما انتسبت أختي إلى جمعيّة تُعنى بالعمل السياسيّ و الاجتماعيّ و الثّقافيَ فاعترض على ذلك زاعما أنّ المرأة عاجزة عن التّوفيق بين مهامّها داخل البيت و خارجه فحاولت أختي أن تقنعه بقدرة المرأة على الإسهام في بناء الأسرة و المجتمع.

- **الجوهر:**

حدث ذلك عندما قرّرت أختي الكبرى التي تحصّلت على شهادة الأستاذيّة في العلوم القانونيّة أن تحتفل بعيد المرأة العالميّ صحبة زميلاتها المتحصّلات على شهائد جامعيّة في مقرّ جمعيّة نسائيّة تُعنى بالعمل السّياسيّ والاجتماعيّ والثّقافِيَ.

وقد شجّعت هذه الجمعيّة الطالبات المتفوّقات على الانتساب إليها والنّشاط ضمن هياكلها فعادت أختي فرحة مستبشرة بهذا النّبأ وقد غمرتها الآمال العظام والأحلام الجامحة بما تتوق إلى إنجازه من مشاركة في الحياة السّياسيّة وإسهام في أعمال اجتماعيّة تحقّق فيها ما تاقت إليه من طموحات وخاصّة في المجال الثقافي. فقد كانت أختي موهوبة في كتابة الشّعر و القصّة و أسرعت إلى أبي تبشّره بما عزمت عليه و في ظنها أنّه لن يتوانى عن تشجيعها و شدّ أزرها و لكنّه ما أن سمع قولها حتّى ثار في وجهه الدّم و طغى على رأسه الغضب و كاد يتمزّق من الغيظ و أشاح عنها بوجهه رافضا ما عزمت عليه و هدّد و توعد بالويل و الثّبور إن هي أنجزت ما تقول حينها أدركت شقيقتي أنّها في موقف حرج و أيقنت أنّ من الصّعوبة إقناعه بخطأ تصوّره و غفلته عن الحقيقة و لكنّها صمّمت على المضي قَدْمَا فـي

الدّرب الذي تخيّرته بكلَ عزيمة وثبات وإن ملأته الأشواك وشابته العثرات فأردفت قائلة:
"–أيْ أبت .. لم أتصوّرك يوما كارها تألّقي و نجاحي و ما فلاحي اليوم غير ثمرة من ثمار تضحيتك و مزيّة من مزايا بَذْلِكَ ذات اليد و ذات النّفس من أجلنا .. فكيف تكتفي بنجاح محدود أحققه و يعزّ عليك أن ترى نجاح المرأة في نجاح ابنتك ..!؟

يا أبي إنّ تطوّر المجتمعات البشريّة و تطوّر عقليّاتها قد ارتقى بالمرأة إلى مركزها الطبيعيّ إلى جانب الرّجل في معركة بناء الحضارة بمختلف مستوياتها السّياسيّة و الاجتماعيّة و الثّقافيّة فزالت بذلك العقليّة التي تنظر إليها على أنّها مقتصرة على خدمة زوجها و أبنائها في البيت و إنّ الواقع يثبت ذلك فالمرأة اليوم عنصر فاعل في المجتمع ضمن مختلف أماكن العمل فهي في المصنع و في المؤسّسة و في المدرسة و غزت الفضاء دون رهبة أو خوف مثل رائدة الفضاء الرّوسيّة "هيلينا تيرشكوفا" بل إنّها قد شغلت أحيانا مناصب سياسيّة حساسة و أدارت شؤون الدّولة بحنكة و تدبير كبيرين على غرار المستشارة الألمانيّة "أنجلا ماركل" و كذلك "مارغريت تاتشر" التي ترأست الحكومة البريطانيّة لعديد السّنوات و عُرفت بالمرأة الحديديّة و أيضا "أنديرة غاندي" زعيمة الهند التي وسعت شهرتها الآفاق و قادت شعبا من مئات الملايين من البشر و "هيلاري كلينتون " وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة .. و تعد تونس مثلا من أبرز البلدان العربيّة جرأةً في تحسين وضعيّة المرأة و منزلتها اجتماعيًا و سياسيًا و ثقافيًا فاقتحمت كل المجالات الفنيّة و التّربويّة و الاقتصاديّة و كان لها صيتها الشائع و صداها الطيّب و يمكن القول إنّ المرأة التّونسيّة صارت تضاهي اليوم نظيراتها الغربيّات و ليس أدلّ على ذلك من اشتراط مبدأ المناصفة بين الجنسين في القوائم الانتخابيّة خلال انتخابات المجلس التأسيسيّ التّونسيّ و احتلال المرأة لنسبة هامّة من بين أعضاء المجلس إضافة إلى اضطلاعها بمهام الوزارة على غرار وزارتي البيئة و شؤون المرأة كما تضطلع المرأة التّونسيّة بدور هام و فعّال في منظّمات المجتمع المدنيّ و السّياسيّة. و لا تقف أهميّة المرأة في المجتمع عند حدود السّياسة بل تتعدّاها إلى المجال الثّقافيَ الذي تطوّرت فيه لتصبح كائنا ثقافيًا فاعلا و مضيفا إلى الكتابات الثقافيّة و لقد جاء في الأمثال

قولهم: "إن علّمت رجلا علّمت فردا. و إن علّمت امرأة علّمت عائلة و من ثمّة تكون علّمت جيلا و أجيالا و مجتمعا" و ما أعلام النّساء و الشهيرات في الأدب و الرّواية على غرار عروسيّة النّالوتي و جميلة الماجري من تونس و غادة السمّان من سوريا و أحلام مستغانمي من الجزائر إلا مثالا من جملة الأمثلة و كم مرّة تطلع علينا المرأة بمقالات و أبحاث جريئة في مختلف الميادين..

و خلاصة القول أنّ المرأة ركن أساسيّ في البناء الحضاريّ الذي نروم تأسيسه اليوم فلا يصحّ أن نبني العالم و قد استغنيّنا عن نصف طاقته المنتجة الفعالة في حين تمكّن مشاركة المرأة في مختلف الأنشطة الاجتماعيّة من استغلال طاقات جميع أفراد المجتمع لتتوفّر فرصة الإسراع بالرقي و التّقدّم"

حملق في وجهها و كأنه قد تفاجأ بما سمعه منها ثم صمت لحظةً صمتَ من يجمع أفكاره و يلم شتات رأيه عساه يُضعفُ موقفها و يُسلِمن قيادها ثم قال و قد أشرق وجهه و كأنّه تين من إفحامها بحجّة دامغة:

"–صّة .. صّة .. رويدك يا ابنتي فهلاً تمهّلت في إصدار أحكامك جزافا دون تفكير و لا رويّة .. . ! ذلك أنّك فهمت الواقع على غير حقيقته و لامست ظاهره و أغفلت حقائقه الكامنة في باطنه فرغم تطوّر المرأة ما زالت مبعدة عن اتّخاذ القرارات السّياسيّة و الثّقَافِيّة و الاقتصاديّة و حتّى اعتماد مبدأ المناصفة بين الجنسيْن في انتخابات المجلس التّأسيسيّ التونسيّ قد كان شكليًا إذ لا يصعد إلى المجلس إلا رأس القائمة الانتخابيّة في حين لا نجد من النّساء على رؤوس القوائم سوى عدد قليل انعكس على نمط حضور المرأة ضمن أعضاء المجلس التأسِيسيَ بعد ذلك هذا في ما يخصَ المجال السياسيَ أمّا في الإطار الاقتصاديّ فنلاحظ تدنّي أجرتها مقارنة بأجرة الرّجل في جل بلدان العالم رغم أنّها تعمل ضعف ساعاته عدا الاستغلال الفاحش كقلّة الضّمانات و الأجور و تعدّد وظائفها خارج المنزل و داخله لتصبح طاقة مشتتة دون أن ننسى عدم ثقة المرأة في المرأة سياسيًا إذ توجد نسبة كبيرة من النّسوة يحبّذن انتخاب الرّجل حسب إحصاءات الأمم المتّحدة أمّا من النّاحية الثّقافيّة فإنّنا نلاحظ كثافة إنتاج المرأة و قلّة التّجديد ذلك أنّه إبداع تقليديّ حيث تهتمّ المـــــرأة في أدبهـا

وكتاباتها بالحريّة والحبّ والجنس والنّار من الرّجل فقط على غرار نوال السّعداوي أو مي زيادة فكان خطابها مبالغا في تمجيد المرأة و جعلها مؤسّسة لكل أنشطة الحياة و علومها و فنونها. بل ذهبت إلى السّخرية اللاذعة من الرّجل لتؤكّد رغبتها في التقليل منه و النّقمة عليه و لعلّ الجوائز العالميّة تترجم هذه الغرات في إبداع المرأة فمثلا ضمن حوالي واحد و أربعين و أربعمائة من الحاصلين على جائزة نوبل في العالم في المجال العلميّ نجد إحدى عشرة امرأة فقط فحذار من التّسرّع يا بنيّتي و نظرًا عميقا في حقائق الأمور فالمرأة لم تقطع شوطا شاسعا في مختلف المجالات كما يبدو من أحكامك المتسرّعة و إنّما هي ما زالت في فجر تحرّرها و بدايات مشاركتها في بناء المجتمع إلى جانب الرّجل".

كانت أختي تنصت إلى كلام أبي مذهولة متعجّبة و قد أيقنت أنّ إقناعه بخطأ تصوّره ليس بالأمر الهيّن فحججه لا تخلو من وجاهة و رؤيته تدلّ على رجاحة فكر و إدراك لجواهر الأمور و إن كان يغالي في التحامل على المرأة و ينكر فضلها على المجتمع فقالت بصوت تملأه الثقة و يغمره الإيمان بتغيير موقفه:

"-لله درّك و لله درّ حجج تجيء بها .. ما أحكم أصولها و أحسن فصولها و أقلّ عيوبها .. و لكن إيّاك و ظلم المرأة يا أبت .. بل .. إنصافها .. إنصافها .. ذلك أنّ حرمان المرأة من إبراز مواهبها و استغلالها في ما ينفعها و ينفع المحيطين بها يتنافى و مبادئ الحريّة و الكرامة و العدالة الاجتماعيّة و قد أثبت الواقع و التجربة أنّ أكثر البلدان تخلّفا هي أكثرها امتهانا للمرأة و احتقارا لها و تنكّرا لحقّها في الانخراط ضمن المجموعة و هذا يعني منطقيًا و عقليًا أنّ المنزلة التي تحظى بها المرأة في المجتمع يمكن أن تكون معيارا لقياس مدى تقدّم الشّعوب أو تخلّفها و ليس من باب المصادفة و الاتّفاق أن نجد المرأة في المجتمعات الأكثر تقدّما فاعلة في المجالات السّياسيّة و الاجتماعيّة و الثّقافيّة و حتّى الاقتصاديّة فقد ساعد خروج المرأة إلى العمل في ارتفاع مستوى المعيشة في بلادنا فهي بما توفّره من مداخيل إضافيّة تساعد الزوج على تلبية حاجات الأسرة و تخفف عليه عبء المسؤوليّة الأسريّة في عصر لعبت فيه وسائل الإعلام دورا كبيرا في خلق عقليّة استهلاكيّة لا تكتفي

في دارك... إنهض على قراءة إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159

بالضّروريّ و إنما تميل إلى الكماليّ ممّا لا يقدر عليه رب الأسرة بمفرده مهما كانت موارده. و هكذا فإنّ إسهام المرأة في البناء الحضاريّ قد أعاد إليها ثقتها بنفسها و أسهم في خلق جيل جديد من النّساء لا يؤمن بالعراقيل و العقبات بل يمضي على درب تحقيق المطامح بكلّ حزم و ثبات فأين امرأة اليوم من امرأة الأمس ؟ و من جهة أخرى فإنّ التطوّر الماديّ الّذِي شهده مجتمعنا لا بدّ أن يصاحبه تطوّر فكريّ و كلّ من ينظر إلى امرأة اليوم بعقليّة الأجداد أولى به و أحرى أن يعيش حياة الكهوف فلا مجال اليوم لمثل هذه العقليّات التي كانت سببا في تخلفنا قرونا عديدة."

تغيّرت ملامح وجه أبي و اجتاحت عينيه نظرات غريبة تشي بما يجول في رأسه من أفكار تمتهن المرأة و تنكر عليها حقوقها في بناء الحضارة و كانت تبدو عليه علامات الارتباك و قد بدا يتحسّس قصور موقفه وحدود نظرته لكنّه استجمع أفكاره و عاد ليقول في محاولة أخيرة للإقناع بموقفه:

"–قد تستأثر المرأة بمواقع في المجتمع أرى الرّجل أجدر بها و لكنّ ذلك لا يشرّع سيطرتها في المجالات الثقافيّة و الاجتماعيّة و السّياسيّة و قد كان من الأجدر أن تهتم بالأسرة و تربية الأبناء و خدمة الزّوج و إنّ التّاريخ العربيّ و الإسلاميّ لا يدعو إلى تشريك المرأة في الواقع بمثل هذا القدر الكبير فقد كانت المرأة سلعة أو مخلوقا من الدّرجة الثّانية بل كانت وسيلة التّسلية العظمى كالجواري في قصور الخلفاء بل إنّ بعضهنّ مثّلن طريق الغواية و الضّلال .. ألم تر ما حدث لآدم عليه السّلام إذ أنزل من الجنّة بسبب زوجته حوّاء و كذلك ما ذكره الله في "سورة التحريم" ضمن الآية العاشرة إذ يقول في كتابه العزيز :"ضرب الله مثلا للّذين كفروا امرأة نوح و امرأة لوط كانتا تحت عبديْن من عبادنا صالحيّن فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شَيْئا و قيل أدخلا النّار مع الدّاخلين"صدق الله العظيم..

ثمّ إنّ المرأة ممنوعة في كثير من المجالات مثل الخلافة إذ لهذا المنصب أعباء جسيمة تتطلّب قدرة كبيرة لا تتحمّلها المرأة عادة و تتنافى مع طبيعتها النَّفْسِيّة و الجسديّة و قد ذهب

جمهور العلماء على إلى اشتراط الذكورة في القضاء كما أكّد الله ذلك في الآية الرّابعة و الثلاثين من سورة النّساء إذ يقول :"الرّجال قوّامون على النّساء بما فضّل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم" و من ناحية أخرى فلا تجوز إمامة المرأة لجماعة الرّجال في الصّلاة باتّفاق الفقهاء و من جهة مقابلة فإنّ الرّسول صلّى الله عيه و سلّم لم يُعين امرأة في حياته .. و جملة القول أنّ المرأة لم تستأثر في التّاريخ العربيّ و الإسلاميّ بمنزلة رفيعة تميّزها عن الرّجل أو تضعها في مرتبته في مختلف المجالات الثقافيّة و الاجتماعيّة و السّياسيّة .. فلا تتوهّمي يا بنيّتي الخيالات حقيقة و فإنّ كثيرا من الأشياء يختلف ظاهرها عن باطنها و لا يصف حقيقتها و لا يعكس جوهرها ..."

حينئذ أدركت أختي أنّ هذه الجولة هي الأخيرة من هذا الحوار فقالت و كلّها أمل في نصر قريب:

"–ما أوسع اطّلاعك يا أبت و ما أشدّ تجنّيك على المرأة فنعم تنوّعُ معارفك و بِئسَ ظلمُ المرأة فهلاّ استمعت إلى ردّي لعلّي أفلح في إقناعك بوجهة نظري !؟ .. إنّ المكانة التي حظيت بها المرأة في الإسلام تنهض دليلا على أنّ إقصاءها و حرمانها من إظهار مواهبها و المشاركة في عمليّة البناء قد تزامن دوما مع عصور التدهور و الانحطاط فهل يمكن القول بأنَ المرأة المسلمة عانت من الانتقاص في عصر السيادة الإسلاميّة عندما نجد كتب التّاريخ تحدّثنا عن الدّور الأساسيّ و الحاسم الذي قامت به السيّدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في نُصرة الرّسول صلّى الله عليه و سلّم و تثبيته في فجر الدّعوة الإسلاميّة ثم نرى الأهميّة القصوى التي ميّزت دور أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها في رواية أحاديث الرّسول صلّى الله عليه و سلّم و شرحها و تبليغ سنّة النبي صلوات الله عليه و سلامه الّذي قال ك"تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبدا .. كتاب الله و سنتي".

ليكتسي دورها قيمة أكبر في هذا السّياق كما تحدّثنا كتب التّاريخ عن الزّرقاء بنت عدي كيف كانت تقف في جموع المسلمين من أنصار علي بن أبي طالب كَرّم الله وجهه تدعوهم على القتال ثمّ نراها بعد ذلك تقف شامخة أمام معاوية بن أبي سفيان و هو يحاسبها على ما

بدر منها فضربت بذلك خير مثال في الوفاء و الثّبات على المبادئ و المواقف الحاسمة و نجدها أيضا تحدّثنا عن شجرة الدرّ التي استطاعت أن تقود أمّة بأكملها في أعتى المراحل و أخطرها في التّاريخ العربيّ الإسلاميّ كما سيطرت الخيزران جارية الخليفة المهديّ و زوجته على مقاليد الأمور في عهده ثمّ حاول ابنها الهادي تقييد سلطتها فقتلته شابًا ثم ظلّت تسيطر على ابنها هارون الرّشيد الخليفة العبّاسيّ المعروف حتى ماتت في عهده . و أمّا ما ذكرته من أمر حوّاء و اعتبارها سبب خروج آدم من الجنّة فهي ليست المسؤولية وحدها عن ذلك و لكنّها تتقاسم معه الذّنب مناصفة" إذ يقول تعالى في "سورة البقرة"ضمن الآية الخامسة و العشرين :"فأزلّهما الشّيطان فأخرجهما ممّا كانا فيه " صدق الله العظيم . و بالإضافة على كلّ هذا فإنّ الإسلام قد بوّأ المرأة منزلة رفيعة عندما جعل الجنّة تحت أقدامها فهل يجوز أن يعتبر ديننا الحنيف رضاها معبرًا إلى الجنّة ثم يحطّ من شأنها و يحرمها من أدنى حقوقها في خدمة مجتمعها و بناء واقعها و حضارتها ! ؟"..

- **الخاتمة:**

عندما أكملت أختي كلامها لم يقل لها أبي أخطأت أو أصبت .. كلا .. و لم يحاسبها على مما بدر منها في كلامها بل كان يصغي إلى كلّ ما تقوله و كأنّه قد شرع في تدبّر معانيه و تقليبه على مختلف وجوهه ثم نظر إليها نظرة دافئة مليئة بالحنان و العطف و امتدّت أصابعه مرتجفة متثاقلة تداعب خصلات شعرها و لم يقل شيئا بل ودّعها بابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيه و غادر المنزل بهدوء و بعد يومين كان موعد أختي لتقدّم مداخلة فكريّة ضمن اجتماع ينعقد في مقرّ الجمعيّة النّسائيّة و كم كانت دهشتها كبيرة و فرحتها عارمة عندما لمحت أبي جالسا في الصف الأوّل يشجّعها و يصفّق لها بحرارة ليتّضح من خلال ذلك أنّ فضل المرأة اليوم قد غدا مشعًاعلى مختلف المجالات و لا يمكن أن ينكره صاحب فكر معتدل و حكم عادل.